

عبد الله بن عبد الله

الأسنة والصلح في الأزمات

الإسلام دائماً السلم ، ويميل إلى الصلح ما دام ممكناً ، يدعو إليه ،
ويقبله حين التفاوض ، ولو لم تكن الشروط والبنود كلها في صف
المسلمين .

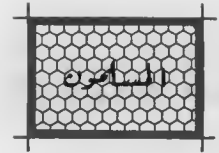


وذلك لما في الحرب من ويلات وما تخلفه من آثار مؤلمة، ولكن إذا دعا الداعي
فالمسلمون أسود ، أركان حرب ، صبر في اللقاء ، صدق في العمل ، يرون أن القتال
جهاد في سبيل الله ، نتيجه لهم فإما النصر وإما الشهادة ... عند ذلك يقدمون على الحرب
ولسان حالهم يقول :

إذا لم يكن إلا الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وقد حفل التاريخ بالأمثلة والشواهد على ذلك و « صلح الحديبية » حدث مهم في
تلك الفترة من تاريخ المسلمين ، وسنستعرض جوانب منه في هذا البحث .

الوضع العام

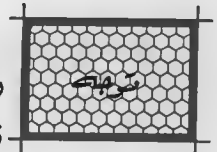


الذين يحترمون المشاعر المقدسة ، ويقدرونها حق قدرها ويعبدون الله عندها بعيدون عن « مكة » ومحرومون من الاقتراب منها وهم في دارهم الجديدة « المدينة المنورة ».. وقريش في « مكة » يدعون أنهم حماة ، وسادات المقدسات ، وهم لا يعرفون التعبد حولها ، بل يعصون الله عندها ، ويصدون عنها أحق الناس بها ...

والمسلمون ينتظرون الفرج ويستبشثون الإذن لهم بالاعتماد إلى البيت الحرام والطواف حول الكعبة ، ولكن انتظارهم يطول . وتعلن قريش أن البيت مفتوح لكل أحد فيسارع المسلمون إلى الاستجابة ويقولون : نحن أولى الناس بالبيت فيقررون السفر إلى مكة بقصد العمرة واحترام البيت ورب البيت ، وطبقاً للشروط والترتيبات التي وضعها القرشيون لمن يريد أن يعتمر .



مفاعاة مخزنة



رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مكة سائقاً معه الهدى احتراماً للبيت وتأكيذاً لهدفه وصدق نيته ، وليس معه سوى ألف ونيف ليس معهم سلاح . . لكنه عندما قرب من مكة جاءته الأخبار بأن قريشاً قررت صده عن البيت ، وأنهم جمعوا له الجموع واستعدوا للحرب .. فلم يصدق ما سمع حتى رأى بنفسه الدليل على ما بيّت له حينما لقيه خالد بن الوليد بمائتي فارس مقدمة لجيش القرشيين . . عند

ذلك سارع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتغيير خط سيره ومال بمن معه ذات اليمن ، ثم أمر بالتزول فجمع أصحابه . . فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

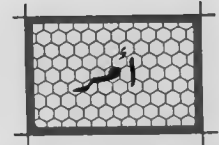
(أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قُرَيْشًا قَدْ جَمَعَتْ جُمُوعَهَا تُرِيدُ أَنْ تَصُدَّنَا عَنِ الْبَيْتِ فَأَشِيرُوا عَلَيَّ بِمَا تَرَوْنَ . . ! أَتَرَوْنَ أَنْ نَعْمَدَ إِلَى الرَّأْسِ - يريد أهل مكة - أَوْ نَعْمَدَ إِلَى الدِّينِ أَعَانُوهُمْ فَنُخَالِفَهُمْ إِلَى مَنَازِلِهِمْ فَإِنْ جَلَسُوا جَلَسُوا مَوْتُورِينَ مَهْزُومِينَ وَإِنْ طَلَبُونَا طَلَبُوا طَلَبًا مُدَانِيًا ضَعِيفًا فَأَخْزَاهُمْ اللَّهُ . . !)

فقام أبو بكر وقال : نرى يا رسول الله أن نعمد إلى الرأس فإن الله - جل ثناؤه - ناصرنا وإن الله معيناك ومظهرك .



احترام البيت

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالرحيل وتوجه إلى البيت وعندما اقترب من حدود الحرم بركت ناقته فقال الناس: خلأت.. - يعني حرنت وامتنعت - فقال رسول



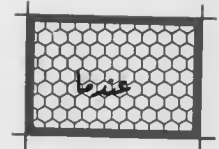
الله - صلى الله عليه وسلم - :

(مَا خَلَأْتُ وَمَا الْخَلَاءُ بَعَادَتُهَا وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ . . لَا تَدْعُونِي قُرَيْشُ إِلَى تَعْظِيمِ الْحَرَامِ فَيَسْبِقُونِي إِلَيْهِ . . . ! هَلُمُّوا هَاهُنَا . .) .

فتأخر عن حدود الحرم وأخذ ذات اليمين حتى نزل في الحديبية على مقربة من الحرم وصار إذا حضر وقت الصلاة يأتي هو وأصحابه راجلين فيدخلون الحرم ويصلون ثم يعودون إلى منازلهم . . .



بدء المفاوضات



علمت قريش بما فعل محمد .. اختارت رجلاً من عقلائها هو حليس بن علقمة فبعثته لمقابلة محمد ومعرفة ما لديه . فلما أخبر باسمه رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - قال : « هَذَا رَجُلٌ مِّنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْهَدْيَ فَاَبْعَثُوا لَهُ الْهَدْيَ حَتَّى يَرَاهُ » فسيفت الإبل في وجهه عليها علامات الهدى قلائد تدل على أنها مهداة للبيت . فوقف مكانه يستعرضها فلم يكلم أصحاب رسول الله كلمة واحدة بل عاد أدراجه إلى مكة فقالت له قريش : ما وراءك قال : أتى القوم بالهدى والقلائد . واقبلوا قاصدين البيت معظمين لحرماته ليس معهم سلاح فلا أراهم يُصَدِّونَ عن قصدهم .

فشتمه قريش وقالوا له : إنما أنت أعرابي لا علم لك بهذه الأمور ولقد أخطأنا ببعثك أنت إليهم .

ثم اختاروا عروة بن مسعود الثقفي الذي اشتهر بينهم بالعدالة والرأي وقالوا له : انطلق إلى محمد ولا تؤتى من قبل رأيك . . . فسار إليه عروة وقابله وقال له : يا محمد . . ! جمعت أوباش الناس ثم سرت بهم إلى عترتك وبيضتك التي تفلفت عنك لتبيد خضراءهم . . تعلم أنني جئتك من عند كعب بن لؤي وعامر ابن لؤي قد لبسوا جلود النمر عند العوذ المطافيل يقسمون لا تعرض لهم خطة إلا عرضوا لك أمر منها .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّا لَمْ نَأْتِ لِقَتَالَ . وَلَكِنْ أَرَدْنَا أَنْ نَقْضِيَ عُمْرَتَنَا وَنَنْحَرَ هَدْيَنَا فَهَلْ لَكَ أَنْ تَأْتِيَ قَوْمَكَ فَإِنَّهُمْ أَهْلِي وَإِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَخَافَتْهُمْ ، وَإِنَّهُ لَا خَيْرَ لَهُمْ أَنْ تَأْكُلَ الْحَرْبُ مِنْهُمْ إِلَّا مَا قَدْ أَكَلْتَ فَيَجْعَلُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مَدَّةً يَزِيدُ فِيهَا نَسْلَهُمْ وَيُؤْمِنُ فِيهَا شَرُّهُمْ وَيُخَلُّوا بَيْتِي وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَقْضِيَ عُمْرَتَنَا وَنَنْحَرَ هَدْيَنَا وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ أَصَابُونِي فَذَلِكَ الَّذِي يُرِيدُونَ . . ! وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ اخْتَارُوا لَأَنْفُسِهِمْ إِمَّا قَاتِلُوا مُعَدِّينَ وَإِمَّا دَخَلُوا فِي السَّلَامِ وَإِفْرِينَ . . . فَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَقَاتِلَنَّ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الْأَحْمَرَ وَالْأَسْوَدَ حَتَّى يَمْضِيَ أَمْرُ اللَّهِ أَوْ تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي ... - رَقِبَتِي - ... » فلما سمع عروة مقالته رجع إلى قريش فقال : « تعلمن أنكم أخوالي وعشيرتي وأحب الناس إلي ، ولقد استغفرت لكم الناس في المجامع فلما لم ينصروكم أثبتكم بأهلي حتى سكنت بين

أظهركم إرادة أن أواسيكم ، ولقد تعلمن أني ما أحب الحياة بعدكم ، وتعلمن أني قد رأيت العظماء ، وقدمت على الملوك، فأقسم بالله أني ما رأيت ملكاً ولا عظيماً أعظم في أصحابه من محمد . إن منهم رجل يتكلم حتى يستأذنه في الكلام فإن أذن له تكلم، وإن لم يأذن له سكت . ثم إنه ليتوضأ فيبتدرون وضوءه يصبونه على رؤوسهم يتخذونه حناناً . فلما سمعوا مقالة عروة داخلهم الرعب وفكروا في الأمر ، وتراجعوا ... وتشاوروا واجتمعوا الرجل والرجلين والجماعة والرهط .

لقد شكوا في خبر الرسول الأول ولكن أنى لهم أن يشكوا في خبر عروة الرجل المخلص لهم العاقل المجرب . إذّا في الأمر جديد ، والمسألة تستحق التفكير . . وقد يتغير الرأي وتتحول القوة إلى ضعف . . والعنجهية إلى تودد . . والكبرياء إلى هوان . .



ساعة الصفر

في الجانب الآخر وفي جيش المسلمين فإنهم بعد سماعهم لحديث عروة ، وموقفه المتصلب ، وإدلاله بقوة قريش وتأكيده لتصميمهم بدأوا يتأكدون أن قريشاً ستيبهم وستبدأ القتال . . لكن قائدهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يأذن لهم بالقتال ولا باقتحام الحرم ولا بالمجابهة .

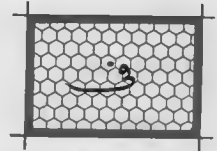
وحتى يبلغ الأمر غايته يأتي خبر طائر من مكة ينبيء بأن عثمان بن عفان قد قتل ، وقد غدر به أهل مكة . - وكان بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليطمئن المستضعفين من المسلمين المتخلفين بمكة ويتفقد أحوالهم ويزور أهلاً له هناك - عند ذلك ثارت نائرة المسلمين واجتمعوا حول قائدهم يطلبون منه الإذن لهم بالقتال ، ويؤكدون له خبر الغدر بعثمان، ويؤيد ذلك أن قريشاً بعثت بخمسين فارساً يطوفون بجيش المسلمين ويعتدون على من شذ منهم . . . فوافق رسول الله على رد الاعتداء واستخلاص عثمان ، والأخذ بدمه إن يكن قتل . . وهناك في الحديبية وعلى مقربة من حدود الحرم وقف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت شجرة يبايعه أصحابه على الجهاد حتى الموت . . فيتقدم الرجل ويتلفظ بالمبايعة وهو يصافح رسول الله . . ولما انتهت المبايعات بآخر مصافح من الجند وضع رسول الله يده اليسرى على اليمنى وقال : « هَذِهِ عَنْ عُثْمَانَ » . . لقد كانت القلوب مخلصه حقاً وكانت العزيمة صادقة والرغبة في الاستشهاد جامحة.. فأنزل الله في ذلك الموقف قرآناً يتلى على مدى الدهر حيث يقول :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنْابَهُمْ فَتَحَاقَرَبِياً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً * وَعَدَ كُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَيْفَ آيَدِي النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا)^(١)

وهكذا تنزل الوحي من الله جزاء للصدق والإخلاص ، لأنه يعلم أن المؤمنين إنما جاءوا احتراماً للبيت والحرم وقد تجنبوا الإثارة ورغبوا في السلم لكن أعداءهم اضطروهم للحرب فلما لم يجدوا بداً منها استعدوا لها استعداداً نفسياً عقيدياً يغلب كل تجهيز مادي مهما بلغ من الفتك والإبادة ويمضي الزمن وتبقى هذه الحقيقة حتى اليوم فالناس بحاجة إلى القوة النفسية قبل القوة المادية .



بوادِ السَّامِ تلوح في الأفق



غمار الحماس وفي معمعة الاستعداد للحرب يأتي من مكة خبر يدل على أن عثمان ما زال حياً وأنه موقوف لدى قريش . . فتهدأ النفوس قليلاً . . ويزداد الأمل في انقراج الأزمة فيتقدم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جماعة يخبرونه بأن رجلاً من قريش يدعى « سهيل بن عمرو » يستأذن في مقابلة رسول الله بصفته رسولاً لقريش ونائباً عنهم . . فيقول رسول الله « إِذَا سَهْلُ الْأَمْرِ ، انْذَرُوا لَهُ . . » . فيدخل على رسول الله ومعه عرض من قريش يقول : نطلب من محمد أن يرجع عنا عامه هذا ولا يخلص إلى البيت فإذا كان العام القابل قدم إلى العمرة ودخل مكة ليس معه فرس ولا سلاح ... فقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المبدأ ونادى علي بن أبي طالب . . وأمره أن يكتب عقد الصلح .

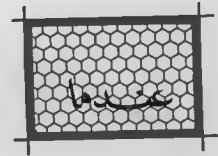
بعد التفاوض على الشروط . . قال لعلي . . اكتب : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . فقال سهيل : لا . . لا نكتب هذا أبداً . . فقال رسول الله : « فَكَيْفَ نَكْتُبُ ؟ » قال : اكتب : باسمك اللهم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَهَذِهِ حَسَنَةٌ اكْتُبُوهَا . . » ثم قال : « اكْتُبْ : هَذَا مَا تَقَامَضَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ . . » فقال سهيل : والله ما نختلف إلا في هذا . . ! قال رسول الله : « كَيْفَ . . ؟ ! » قال : لو كنا نعتقد بأنك

(١) الآيات الكريمة من سورة الفتح : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

رسول لصدقناك . ولكن اكتب اسمك واسم أبيك محمد بن عبدالله . قال : « وَهَذِهِ حَسَنَةٌ اَكْتُبُهَا .. » فكتب على العقد وكان من بين الشروط التي تم الاتفاق عليها : « أن بيننا العيبة مكفوفة ، وأنه لا أغلال ولا أسلال وأنه من أتى من قريش إلى المدينة يرد إلى مكة . . ومن أتى من المدينة لا يرد إليها . وأن من رغب من القبائل الدخول في شرط الفريقين فله مثل شرطه . » ثم ختم الكتاب ووقع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن جانب المسلمين . وسهيل بن عمرو عن جانب قريش .



تففيذ العقد بيدا بمفاجأة غربية



رفع الموقعان أيديهما موقعين عقد الصلح بشروطه دخل إلى المكان أبو جندل بن سهيل ابن عمرو موثقاً بالحديد ربطته قريش عندما أسلم وقد أفلت من أيديهم والتجأ إلى المسلمين هارباً فلما رآه المسلمون قالوا: اللهم أبو جندل...! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « هُوَ لي .. » وقال أبوه سهيل : لقد لحت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا فهو لي . . فانظروا في الكتاب . . فنظروا فوجدوا الشروط تنص على أنه لسهيل فأمر رسول الله برده إليه - فأخذ أبو جندل ينادي : يا رسول الله . . ! يا معاشر المسلمين أتردونني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا أَبَا جَنْدَلٍ : قَدْ لَحَتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ وَلَا يَصْلُحُ لَنَا الْغَدْرُ ، وَاللَّهُ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا . » فتأثر أبو جندل تأثراً عظيماً لما يعلم ما سيلقاه من التعذيب - فقال رسول الله لوالده . « هَبْهُ لي .. » ! قال سهيل : لا . قال : « فَأَجِرْهُ لي .. » ! قال : لا . وكان مع سهيل في وفادته زميل له يقال له : مكرز بن حفص . . فقال : قد أجرته لك يا محمد . . قال سهيل : لن أنقض إيجارتك .

وهكذا يتميز المسلمون بالوفاء حتى في الساعات الحرجة فلقد تأثر المسلمون كثيراً بهذا الموقف المحرج الذي حصل لأبي جندل . . والمسلمون لا يرضون الدنيا في دينهم . . ولكنه الوفاء . . ولكنه رسول الله يعلم عن الله ما لا يعلمه صحابته وهم في طاعة رسول الله وفي متابعتة يضربون المثل الأعلى لأنهم يعلمون أنه يصدر عن وحي من السماء . . !

ويقوم وفد قريش حاملاً معه عقداً موقعاً من محمد . . ويتفرق من شهد الصلح من المسلمين إلى خيامهم

قد شردوا في تفكير عميق ولولا إيمانهم بمحمد وما جاء به لكان لهم ولقريش شأن عظيم .

■ فهل يصدق عاقل أن قوماً جاءوا مهللين مكبرين محرمين ساقوا معهم الهدى يصدون عن البيت . . ؟ !
وهل يتصور أن تقبل شروط الأعداء بما فيها من جيف وتحامل . . ؟ !

■ إن كل ذلك بتدبير العزيز الحكيم . . ! فرغم قسوة شروط الصلح إلا أن النتيجة للمسلمين . وسيحقق الله أملهم بالنصر والفتح وسيدخلون مكة مهللين مليون قريباً . . . وقد كان ذلك فدخلوها في العام القابل ... !



عبد العزيز بن عبد الرحمن المسند

الاسم : عبد العزيز بن عبد الرحمن المسند

- * ولد في بريدة ، وتلقى القرآن ومبادئ العلوم على مشائخها .
- * ثم كان من الدفعات الأولى - في دار التوحيد بالطائف وهناك حصل على الشهادة الابتدائية والمتوسطة والثانوية .
- * التحق بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة وحصل على الشهادة العالية منها . .
- * عمل مديراً لأحد المعاهد العلمية . . ثم عميداً لكلية الشريعة ، وكلية اللغة العربية بالرياض . ثم عين مساعداً للمدير عام المعاهد العلمية والكليات . ثم مديراً عاماً ثم نائباً لرئيس الكليات والمعاهد العلمية .
- * ويعمل الآن . مديراً للمعاهد العلمية .
- * له نشاط في الدعوة إلى الإسلام في العالم الخارجي .
- * له نشاط ملموس في المحاضرات في مواضيع مختلفة .
- * له نشاط في برامج توجيهية هادفة في الإذاعة والتلفاز .
- * عضو في مؤسسة الجزيرة . ومجلس إدارتها .
- * وعضو في جمعية البر بالرياض .